مفهوم اللغة عند ابن جنّي

م.د. عبد الجبار عبد الأمير هادي
كلية التربية / ميسان

لا يخفى أثر ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في الدراسات اللغوية الحديثة بخاصة (١) ، مما تركه هذا اللغوي من مصنفات تشهدُ له بالسبق والابتكار في مجالات الدرس اللغوي وتفصح عن خدمته المخلصة للعربية والناطقين بها على مرور الأزمنة . ومصنفات هذا الرجل كثيرة متنوعة غير أن منها ما هو أكثر إذاعة من سواه وأشد التصاقا بما نحن في صدده ، من نحو : سر صناعة الإعراب الذي صنفه في أصوات العربية مجردة من التأليف والتركيب ، فهو دراسة لأصوات العربية في أنفسها . وكتاب المحتسب الذي أودع فيه شواذ القراءات وبيان أوجهها في العربية مع لمحات لطيفة في قيمة الأصوات ومسائل أخرى لا غنى للباحث عنها . وكتاب الخصائص الذي صنفه للوقوف على أوضاع العربية وقوانينها وسننها وأحكامها في تركيبها العام . والحق إن هذا الكتاب ((لوفي كتاب نعرفه يتناول المنهج العلم لدرس اللغة .. هو كتاب يعرض للأصول العامة للدرس اللغوي في العربية)) (٢) إذ هو كما يقول صاحبه : ((مبنيّ على إثارة معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع والمبادئ ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي)) (٣) .

تلك الأوضاع والمبادئ هي نظام اللغة . كيفما كانت وحيثما وجدت ، وهي الأصول والمقاييس التي يدرجُ عليها أبناء اللغة الواحدة ليتحقق ذلك النظام .

وقد أوضح ابن جني تلك الأوضاع وقرر أصولها في ضوء دراسته للغة العربية بكونها نظاما لغويا خاصا له طبيعته المتميزة ، دون أن يغفل طائفة من الأوضاع الخاصة بلغات أخرى ، وإذا كان حديثه هذا إشارات عابرة مقصودة ، فإنها لا تخلو من فائدة .

وما دام غرض (الخصائص) (٤) ، إنما هو تقرير حال أوضاع اللغة العربية ومعدنها ، إلا أن ما يلفت النظر فيه هو أننا - بتحفظ - نقف لأول مرة على تصور عالم لغوي عربي مثل ابن جني ، للغة وتعريفه إياها ، إذ

---

(١) في فقه اللغة في الكتب العربية د. عبده الراجحي ودراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح وانظر الدراسات النهجية والصوتية عند ابن جني للدكتور حسام النعيمي وغيرها .

(٢) فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٩٠ .

(٣) الخصائص : تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٢ / ١ / ٣٢ . والاحناء : أطراف الشيء وأواخره .

(٤) لا يعني هذا إغفال المصنفات الأخرى ، غير أن للخصائص أهمية خاصة عليها في اشتماله على حد اللغة فضلاً عن احتوائه المزايا التالي ذكرها .

ISSN: 1812-7576

ليس بين أيدينا نص قديم قبل هذا العالم الجليل ، يحصر ماهية اللغة ويحدد عناصرها وطبيعتها ، لذا فإن ما ورد في الخصائص في هذا الشأن هو أقدم ما وصل إلينا ، كما نظن .

والنظر في مفهوم اللغة عند النحاة العرب واللغويين السابقين على ابن جني ، يدل على أنه كان يتضمن دلالات متنوعة ، فالنحاة يستعملون كلمة (لغة) مراداً بها لهجة مخصوصة دون سواها : كما واضح في نحو : لغة الحجاز ، ولغة تميم ولغة طي وغيرها .

قال سيبويه : ((وتقول : إذا كان غداً فأتني .. فالفعل لغد .. وإن شئت قلت : إذا كان غداً فإتني ، وهي لغة بني تميم)) [٥] وربما أريد بها ظاهرة لغوية تنتسب إلى هذه البيئة أو تلك ، ولغة (أكلوني البراغيث) مشهورة في كتب النحو بخاصة ، وهي ظاهرة تقتضي المطابقة في العدد بين الفعل والفاعل في الترغيب ، وقد عزيت هذه الظاهرة إلى قبيلة طي ، كما ((حكيت لنا هذه اللغة كذلك عن قبيلة بلحارث بن كعب وقبيلة أزد شنوءة وهما من القبائل التي تعدت لأصل قبيلة طي بصلة)) [٦] .

واستعمل سيبويه عبارة (اللغة) في بعض السياقات ليدل بها على المستوى الأفصح في الكلام ، قال في باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا : ((ودعاهم يكون الآخر في المثلين أن بين أهل الحجاز في الجزم (الأمر) فقالوا : أرتد ولا تردد وهي اللغة العربية القديمة الجيدة ..)) [٧] .

والظاهر أن النحاة - ولا أشك أنهم يجهلون مفهوم اللغة بمعناها العام - لم يكونوا معنيين بوضع حد للغة وتعريفها ، إنما كانوا معنيين بـ (الكلام) وحده وتبيان عناصره وأحكامه [٨] .

أما اللغويين ، فإننا نجد أن مصطلح اللغة لديهم ذو مفهوم خاص ، إذ كان يُراد به الصنعة الكامنة في تتبع الكلم في العربية ، شاردها وغريبها وشذرها ودخيلها ، وغيرها مما استعملته العرب ونطقت بها ، من هنا كانت عبارة (اللغة) علماً ، وهو ((العلم الذي يختص بجمع الألفاظ اللغوية ودراستها)) [٩] .

---

(٥) الكتاب : (حـ ، هـ ، ز ، ن) الخانجي ١٩٨٢ - ١ / ٢٧٤ .

(٦) بحوث ومقالات في اللغة : د . رمضان عبد التواب ، الخانجي ١٩٨٨ : ص ٢٥٢ .

(٧) الكتاب : ٤ / ٤٧٣ .

(٨) انظر : خواطر هيكلية في كتاب سيبويه ، هنري فليش ، الحولية التونسية ١٨ / ١٩٨٠ ، ص ٢٦٦ .

(٩) فقه اللغة في الكتب العربية ، ص ٣٧ .

ISSN: 1812-7576

على أننا وجدنا لديهم كذلك عبارة (لِسْن) أو (اللسان) وأنها كانت ترادف اللغة في مفهومها العام ، قال أبو عمرو الشيباني : لكل قوم لِسْن ، أي لغة يتكلمون بها ([10]) .

و على ذلك قوله تعالى ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)) ([11]) أي بلغة قومه ((لأن مدار الأمر على الإفهام والتفهم)) ([12]) .

وقال الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) : ((إن كل قوم لغة يتكلمون بها)) ([13]) وهذا القول لا يشتمل على حد اللغة.

ولعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن ابن جني هو أول اللغويين الذين منحوا مصطلح اللغة مفهومها العام في ما رسمه من حدها ، كما سنرى .([14])

من هنا كانت محاولتي هذه لاستكناه العناصر التي تضمنها حدّ ابن جني للغة ، مُبينا أبعاد كل عنصر دون أن أدخل في النص ما ليس منه ، أو أحمله ما ليس يحتمله ، لعلمي أن ابن جني لم يشأ ولم يقصد إليه ، وبعد ذلك كله خلصت إلى نتيجة هذه المحاولة المتواضعة ، وهي تأتي في موضعها إن شاء الله .

يقول ابن جني في باب القول على اللغة وما هي : ((أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)) ([15]) . وهذا التعريف كما يرى بعض الدارسين ((يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة ويتفق مع كثير من التعريفات الحديثة للغة)) ([16])

والقول أن اللغة أصوات ، إنما يؤكد الجانب المحسوس الذي تتألف منه اللغة وهو جانب مركب بوجهه (المتكلم) ويستقبله (السامع) في الغالب .

([10]) الإيضاح في علل النحو : الزجاجي ، تحقيق د. مازن المبارك ، بيروت ط٢ - ١٩٧٣ ، ص ٩١ .

([11]) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

([12]) البيان والتبيين : الجاحظ ، (تحـ هارون) الخانجي ١٩٧٥ / ١ / ١١ .

([13]) الإيضاح في علل النحو ، ص ١٩ .

([14]) والحد الذي رسمه ابن جني سنجده كذلك عند عدد من اللاحقين من علماء العربية .

([15]) مدخل إلى علم اللغة د. محمود حجازي ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠ . وقارن : فقه اللغة في الكتب العربية ، ص ٦٠ .

(16) المصدر السابق . ص ٦٠.

ISSN: 1812-7576

والمراد بالأصوات هنا : العملية الكلامية الحادثة بين المخاطِب والمخاطَب بغض النظر عن ماهية هذه الأصوات ومصادر انتقالها ، لأنها حسب التعريف ذات صلة وثيقة بـ (التعبير) الكامن في الوحدات المصوتية التي تتألف منها الألفاظ والعبارات المركبة وتقيمها .

والحق إن كون اللغة (أصواتا) ليس بالشيء المُحدث عند ابن جني ؛ إذ هو أمر نجده عند من سبقه من علماء العربية على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ، فقد قال سيبويه وهو يعني اللغة العربية : ((هذا باب عدد الحروف العربية ، ومخارجها فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا)) ([17]) أي صوتا .

والجاحظ كلام قيم في أن اللغة - ومسماها الكلام ([18]) - مؤلفة من أصوات ؛ قال : ((ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما .. إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف)) ([19]) وقد قرر بعد أن ((لكل لغة حروفا في أكثر كلامها)) ([20])

وإذا كان لكل لغة أصوات في أكثر كلامها ((وكانت الأصوات تمثل القدر المشترك بين جميع اللغات الإنسانية)) ([21]) فلا شك في أن لكل لغة معجمها الذي يؤلف جماع أصولها أصواتها ، قال ابن جني في حروف المعجم العربية ((أعلم أن أصول حروف المعجم عدد الكافة تسعة وعشرون حرفا ، فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور ... جميع هذه الحروف إنما وجب إثباتها واعتدادها لما كانت موجودة في اللفظ ...)) ([22]) . وإثبات هذه الأصوات واعتدادها له أثره النفسي في تكوين عادات متشابهة في النطق لدى أفراد اللغة الواحدة ، هذه العادات المتماثلة هي التي توجد اللغة ([23]) ، وهي التي تجعل أفراد البيئة الواحدة يحسون الفارق بين ما ألفوه من أصوات وبين ما يطرأ على ما اعتادوه من أنماط صوتية . ويبدو أن اللغويين العرب قد قطنوا لبعض الأصوات التي فارقت مخارج الفصحاء ، فاختلفت صورها النطقية عما درجوا عليه من صور مألوفة ، لذلك عدوها غير مستحسنة ومرذولة ، فكأنها صور عارضة ودخيلة على اللسان العربي ، قال ابن جني ((وقد تلحق (بالأصول) .. ثمانية

([17]) الكتاب ٤ / ٤٣١ .

([18]) هذا متواتر مشهور عند علماء العربية ، (قال الزجاجي : الإيضاح ، ص ٤٨ : الاسم في كلام العرب ما كان دالا ..) وعلله كثير .

([19]) البيان والتبيين : ١ / ٧٩ .

([20]) ن . م / ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

([21]) في علم اللغة العام ، عبد الصبور شاهين ، بيروت ، ط ١٩٨٨ ، ص ٢٧ .

([22]) سر صناعة الإعراب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ١ / ٤٦ - ٤٨ .

([23]) أنظر : علم اللغة ، أنطوان مايه (مقدمة : النقد المنهجي عند العرب) د. محمد مندور ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٥٦ .

ISSN: 1812-7576

أحرف (أصوات) وهي فروع غير مستحسنة ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة وغير متقبلة)) ([24]) وعدم الأخذ بهذه الفروع ، وعدم استحسانها ، إنما يرجع إلى التقاليد السماع والمشافهة في الكلام ، ولعل هذه الأصوات دخلت اللسان العربي عن طريق الاختلاط ، وربما كان بعضها شائعاً على لسان الموالي ، ولم تتمكن من اللسان العربي ، لذا عُدت ضعيفة ومرذولة ؛ قال الجاحظ ((وقد يتكلم السنلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيّراً ... ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطيّ ..)) ([25]) وقال في أبي مسلم الخرساني ((وكان إذا أراد أن يقول : قلت لك . كلت)) ([26]) يعني أنه ينطق حيما قاهرية وهذا الصوت مما ألفه العجم . ومن الأصوات التي ألفوها دون العرب الفصحاء الباء التي كالفاء وهي ((ما يسمونه الباء الفارسية .. مثل صوت (P) .. والمعروف أن العربَ كانوا يُعربون هذه الباء بقلبها فاءً)) ([27]) .

وإذا كانت العادات النطقية هي التي تميز قومٌ عن قوم فإن ذلك يعني أن لكل قوم نظامهم الصوتي الذي تواضعوا عليه ، وهذا يقتضي أن تكون الأصوات ذات قيم ومقاصد مشتركة بين أفراد البيئة اللغوية الواحدة ، فالأصوات هنا في الواقع ((رموز اصطلح على أشكالها وكيفياتها وكمياتها بالقدر الذي تسمح به اللغة المعينة ، كما اصطلح على الدلالة التي ترتبط بكل مجموعة من الأصوات)) ([28]) وهنا يتضح دور (القوم) أو المجتمع اللغوي في إيجاد نظام صوتي يخضع له أفراده في سلوكهم الكلامي . ومن شأن هذا النظام ، كذلك أن يحقق مبدأ الفهم المشترك الذي يقتضيه اتصال بعضهم ببعض ، فاللغة في ضوء هذا الجانب نظام مُتفق إليه ((وقواعد مقررة .. ولولا هذا النظام لما تحقق لها من هدف ، وقد اتضح هذا النظام اللغوي في أكثر اللغات بدائية - وفي البيئات التي لم يُتح لها أي نصيب من الحضارة)) ([29]) .

وما دام لكل لغة نظامها الذي يحدد مستوياتها المختلفة ، فلا شك في أن لكل قوم نظامه اللغوي الذي تواطأ عليه ، وأحسب أن ابن جني قد أكد هذه الحقيقة اللغوية التي تكمن في اختلاف الرموز الصوتية وهيأتها من لغة إلى أخرى بله اختلاف صورتها ؛ يقول : ((ومن هذا الذي في الأصوات ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في

([24]) ينظر صناعة الإعراب ١ / ٥١ ومن هذه الأصوات الجيم التي كالكاف (الجيم القاهرية) والباء التي كالفاء (الباء الفارسية) وغيرها

([25]) البيان والتبيين : ١ / ٦٩ .

([26]) ن . م ١ / ٧٣ .

([27]) اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ، مصر ١٩٧٣ ، ص ٥٦ .

([28]) في علم اللغة العام ، ص ١٦٥ .

([29]) اللغة بين القومية والعالمية ، د. إبراهيم أنيس ، مصر ١٩٧٠ ، ص ١١ .

ISSN: 1812-7576

حروف المعجم .. وعلى ذلك اختلفت أقلام ذوي اللغات كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواصفات)) ([30]) .

يعني أن هذه ((إنما وجب إثباتها واعتدادها (في الخط) لما كانت موجودة في اللفظ الذي هو قبل الخط .. والخط فرع على اللفظ)) ([31]) .

وإذا كان لكل لغة أصواتها وعداداتها النطقية ، فإن الأصوات أنفسها يجب أن تكون ذات دلالات مفهومة من قبل أبناء اللغة الواحدة ، وهذا السلوك النفسي للغة يعكس أثر المجتمع اللغوي في صياغة نظامه اللغوي ، والمجتمع إنما يراعي رموزه الصوتية وسياقاته اللغوية التي اصطلح عليها في الاستعمال الفعلي للغة ، فليس للفرد أن يستعمل غير ما درج عليه المجتمع الذي ينتمي إليه وليس له أن يعبر عن غير ما ارتبط بوعي جماعته ونظامها العام .

وفي هذا نلمس العنصر الاجتماعي للنظام الصوتي وهو ما يقرره الدرس اللغوي الحديث ، ذلك أننا ((حين نسمع أناساً يتكلمون لغة لا نفهمها فأننا نسمع الأصوات ولكننا نبقى خارج العنصر الاجتماعي لأننا لا نفهم هؤلاء الناس)) ([32]) ولعل ابن جني لم تغب عن باله هذه الحقيقة الاجتماعية للغة .

نلمس من ذلك فيما حكاه عن أبي مهدية الإعرابي الذي ((سمع رجلاً من العجم يقول لصاحبه : زوذ ، فسأل أبو مهدية عنها فقيل له : أعجل ، فقال أبو مهدية : فهلا قال له : جرهاك . فقيل له : ما كان الله ليجمع لهم إلى العجمية العربية)) ([33]) .

وحال الإعرابي حال من يسمع الآن لغة أجنبية ، فهو يسمع أصواتا متعلقة (أو رنانة) دون أن يعرف المراد ، وهنا تتجلى بعض الحقائق في اللغة البشرية منها : أن هدف النظام اللغوي الأساس هو التفاهم بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة ، ذلك النظام الذي من شأنه أن يقرب الجماعة بعضها من بعض وينفي أي احتمال للقطيعة فيما بينها ، من هنا اكتسبت ((اللغات المتواضع عليها أهميتها من علاقتها المتميزة بالمجتمع و هي علاقة غير طبيعية إذا ما وضعناها في سياق عشرات بل مئات الآلاف من السنين التي استخدمت فيها اللغة)) ([34]) .

([30]) الخصائص : ١ / ٤٥ ـ ٤٦ .

([31]) سر الصناعة : ١ / ٥٠ .

([32]) علم اللغة العام (سوسور) ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٣١ .

([33]) الخصائص : ٣ / ٢٨ .

([34]) علم اللغة الاجتماعي (د. هدسن) ترجمة د. محمود عياد ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ٦٣ .

ISSN: 1812-7576

والهدف السالف ذكره متفاق فيما عبر عنه ابن جني بـ (الأعراض) وهو الجانب النفسي للغة : بعبارة أخرى : هو المعاني والأفكار التي تستدعيها الرموز الصوتية التي اصطلح عليها من لدن الأفراد في البيئة اللغوية المعينة وتلك حقيقة أخرى ، تكمن في أن الصلة بين الوحدات الصوتية و معانيها ليست فطرية أو طبيعية ، إنما هي في الغالب صلة مكتسبة ، يقررها العرف ويحققها الاستعمال . ولو كانت الصلة طبيعية بينهما لما غاب عن أبي مهنية معنى كلمة العجمي ، ولما اقترح لها بديلاً مستعملاً في لغته هو لا في لغة العجمي ، ولو صحت هذه الصلة بين الكلمة ومعناها ((لكان حتما أن يتكلم الناس لغة واحدة)) ([35]) وذلك ضرب من المحال ؛ لأن الكلمات لا ((تكتسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محدودة فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات بل كل منها ذات إيحاء محدد في مجتمع لغوي دون غيره)) ([36]) .

وبرغم أن ابن جني كان يؤمن أن ثمة صلة طبيعية بين الأصوات وما تعبر عنه من أحداث ومعان ، فأن إيمانه هذا في الغالب إنما قصره على العربية وحدها ، وقد بنى ذلك كله على أساس عقلي وحماسة المخلص الأمين في دراسته لأوضاع اللغة العربية فقرر فيما بعد أن للأصوات فيها قيمها التعبيرية وأنها ذات صلة بمعاني الكلمات التي تشتمل عليها الرموز الصوتية التي اصطلح عليها من لدن الأفراد في البيئة اللغوية المعنية ، وتلك حقيقة أخرى ، تكمن في أن الصلة بين الوحدات الصوتية ومعانيها ليست فطرية أو طبيعية ، إنما هي في الغالب صلة مكتسبة ، يقررها العرف ويحققها الاستعمال .ولو كانت الصلة طبيعية بينهما لما غاب عن أبي مهنية معنى كلمة العجمي ، ولما اقترح لها بديلاً مستعملاً في لغته هو لا في لغة العجمي ، ولو صحت هذه الصلة بين الكلمة ومعناها ((لكان حتما أن يتكلم الناس لغة واحدة)) ([37]) وذلك ضرب من المحال ، لأن الكلمات لا ((تكتسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محدودة فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات بل كل منها ذات إيحاء محدد في مجتمع لغوي بعينه دون غيره)) ([38]) .

وبرغم أن ابن جني كان يؤمن أن ثمة صلة طبيعية بين الأصوات وما تعبر عنه من أحداث ومعان ، فأن إيمانه هذا في الغالب إنما قصره على العربية وحدها ، وقد بنى ذلك كله على أساس عقلي وحماسة المخلص الأمين في دراسته لأوضاع اللغة العربية ، فقرر فيما بعد أن للأصوات فيها قيمها التعبيرية وأنها ذات صلة بمعاني الكلمات التي تشتمل عليها تلك الأصوات ، قال : ((واعلم أن العرب تقارب بين الألفاظ والمعاني إذا كانت عليها أدلة وبها

([35]) أسس علم اللغة (ماريو باي) ترجمة د. مختار عمر ، طرابلس ١٩٧٣ ، ص ٤١ .

([36]) علم اللغة العربية (د. محمود حجازي) وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٥ .

([37]) أسس علم اللغة (ماريو باي (ترجمة د. مختار عمر ، طرابلس ١٩٧٣ ، ص ٤١

([38]) علم اللغة العربية (د. محمود حجازي) وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٥ .

ISSN: 1812-7576

معتبلة ... وتلحق المعصور ، والعصر شدة جماعة ، والتعزيز للضرب ، وذلك شدة لا محالة ، فالشدة جامعة للأحرف الثلاثة)) (38) . وقال : ((القبض - بالضاد معجمة - باليد كلها ، وبالصاد - غير معجمة - بأطراف الأصابع .. وذلك أن الضاد لتفشيها واستطالة مخرجها جعلت عبارة عن الأكثر ، والصاد لصفائها ولانحصار مخرجها وضيق محلها جعلت عبارة عن الأقل)) (39) .

وفي مكان آخر ، قال : ((ومن ذلك .. جرّ الشيء يجرُّه ، قدموا الجيم لأنها حرف شديد ، وأول الجر بعثقة على الجار والمجرور جميعاً ، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر ، كرروها مع ذلك في نفسها ، وذلك لأن الشيء إذا جُر على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعداً عنها ونازلا عليها ، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق ، فكانت الراء لما فيها من التكرير .. أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها)) (40) .

وإذا كانت هذه المظاهرة كثيرة ومستفيضة في العربية كما يرى ابن جني ، فأن الدرس اللغوي الحديث ينكرها ، وإذا ما وجدت فهي قليلة العدد وليست ((دليلا على بطلان حجة الاعتباطية في الإشارة اللغوية)) (42) .

ذلك أن الأصوات معتلة في الألفاظ من خلق البعد البشري ، وأن ما تعبر عنه مقصود إليه ومصطلح عليه في الاستعمال ، يقول ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) إن ((الأسم الواحد .. تختلف مسميته لاختلاف اللغات ، وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم له واستعمال فيما قررته المواضعة)) (43) .

ويبدو ((أن ابن جني كان من العلماء القلائل الذين يذهبون إلى وجود مناسبة بين اللفظ والمعنى ، فقد أشار التفتازاني إلى مذهب بعض العلماء في وجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ والمعنى وقال : واتفق الجمهور على أن هذا القول فاسد)) (44) .

ومع ذلك ، فثمة رأي آخر لابن جني - وإن لم يكن ذا بال مع قوله بالمناسبة الطبيعية - يقرر فيه أثر المواضعة في منح الألفاظ قيمها التعبيرية ، يقول : ((فمتى سُمعت اللفظة من هذا الحرف (معناها) وعلم جرا فيما

---

(38) المحتسب ، تحقيق علي النجدي ناصف و د. عبد الفتاح شلبي ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٢ / ٦ .
(39) المصدر نفسه : ٢ / ١٩ .
(40) الخصائص : ٢ / ١٦٥
(42) علم اللغة العام (سوسور) ص ٨٨ ، واللغة بين القومية والعالمية ، ص ٢١ .
(43) سر الفصاحة / تحقيق عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٢ .
(44) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، د. حسام النعيمي ، بغداد ١٩٨٠ ، ص ٢٧٨ .

ISSN: 1812-7576

سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف ، ثم ذلك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : التي اسمه إنسان فليجعل مكان (مورد) والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سر) وعلى هذا بقية الكلام ...)) ([45]) .

وقد تبين لنا مثل هذا فيما حكاه أبو مهدية الإعرابي الذي حاول أن يجعل (حيهلك) العربية مكان (زود) الفارسية .

وتلك إشارة إلى أن الألفاظ موقوف عليها من قبل الجماعة اللغوية وأن معانيها نتاج المواضعة لا الطبيعة ، هذه المواضعة تنضع ((اللغة جنبا في قائمة الرموز ، مثل عملة النقد الورقية التي ترمز إلى قيمة شرائية معينة ، وتعتمد في قيمتها على العرض والاتفاق بين أفراد المجتمع ، لا على قيمتها الذاتية)) ([46]) .

وما دامت اللغة نظاماً من الأصوات ، فإن هذا النظام لا وجود له ما لم يدخل المجال الفعلي للغة ، ذلك المجال هو التخاطب بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة ، ليمارس كل منهم دوره في عملية التوصيل أو التعبير عن أغراضه . والتعبير بالأصوات كما توحي به عبارة ابن جني إنما يقصر عملية التوصيل على الكلام المحسوس نطقا وسمعا ، وهو بذلك الفعل الذي يقتضي متكلما وسامعا في حدث لغوي معين ، وفي إطار اجتماعي معين كذلك .

والدور الذي يقوم به المتكلم ، سواء أكان شعوريا أو لا شعوريا ، دور قائم على أنظمة اجتماعية صارمة ، منها النظام اللغوي الذي يفرض أنماطا وسقايس تحكم سلوك المتكلم ، تلك الأنظمة والمقاييس هي قواعد اللغة وخصائصها وتقاليد المجتمع وثقافته التي تنظم طرق التعبير في الكلام ويوجهها المتكلم نحو توصيل أغراضه وتحقيق مبدأ الاتصال الاجتماعي .

إذن فاللغة نظام معين في بيئة لغوية معينة على ((المتكلم أن يراعيه ويتمسك به في كلامه لأنه شرط الفهم والإفهام بين الناس ، وإذا أخل المتكلم بهذا النظام حكم السامع على كلامه بالغرابة والشذوذ)) ([47]) .

فالمتكلم ليس حرا في توصيل أغراضه ، وإن سلوكه قائم على معايير بيئته اللغوية ، والسلوك اللغوي (التعبير الصوتي) في كل بيئة لغوية يتخذ قوالب وأساليب معينة يدرج عليها أبناؤها في الاستعمال لتحقيق الفهم المشترك ، وهي أساليب تشكل خصائص لغوية وقواعد مألوفة أقرها الاستعمال العرفي ، ذلك الاستعمال من شأنه أن يضمن الوضوح المتبادل ، يقول ابن جني متحدثا عن أحد أوضاع العربية : ((إن هذه اللغة أكثرها جار على

([45]) الخصائص ١ / ٤٤ .

([46]) أسس علم اللغة : ص ٤١ .

([47]) من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ .

ISSN: 1812-7576

المجاز .. فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبهم .. جرى خطابهم مجرى ما يألفونه ويعتدونه منها ، وفهموا أغراض المُخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعاداتهم في استعمالها وذلك فهم يقولون : هذا الأمر يصغر في جنب هذا ، أي بالإضافة إليه ..)) ([48]) .

هذا الاستعمال العرفي أو الخطاب الذي أصبح في حكم المعتاد يضفي على اللغة نظامها المتميز ، كما يشعر الجماعة اللغوية بالانتساب بعضها إلى بعض ، وفي هذا الصدد يقول مارتيو باي . ((إذا كنت تتكلم لغتي فأنت تنتمي إلى جماعة أخرى غير جماعتي ونحن نتصرف على هذا الأساس)) ([49]) .

والتصرف هنا هو استعمال الجماعة لنظامها اللغوي بما يحقق الاتصال الذي يقتضي التفاهم المشترك ، وهو تفاهم يجعل أفراد الجماعة يتحدثون لأنفسهم نوعا من القياس : فتصبح اللغة كما اصطلح ابن جني ((لغة الكافة)) ([50]) ، تلك اللغة التي تقتضي الصحة ، ويكون القياس في ضوء تلك الصحة أو الوضوح .

فالتعبير بالأصوات هو الاستعمال العرفي الذي يؤديه الفرد في بيئته اللغوية ، وهو لا يشير إلى وظيفة اللغة كما يتبادر إلى الذهن ، بقدر ما يعكس دور الجماعة في إضفاء خصائص متميزة ومقبولة على بناء نظامها اللغوي ، هذه الخصائص تتشكل في جماعها أوضاع اللغة وأحكامها التي يراعيها المتكلم في المواقف الخطابية المختلفة .

في ذلك وحده تعدو اللغة مؤسسة جماعية يمارس فيها الأفراد أدوارهم في ضوء تعليمات وقوانين هذه المؤسسة التي تفرض استقامة السلوك الكلامي والتوخي فهم هؤلاء الأفراد مقاصد كل منهم . والقصد إنما يتحرك في المقام الأول على التعارف الاصطلاحي بين أفراد الجماعة اللغوية ، لأن التعرف هو الذي يكسب الكلمات والجمل قيمها الرمزية التي يحددها الواقع الاستعمالي للغة . ولذا جاءت عبارة ابن جني (يُعبِّر بها كل قوم)) لتأكيد عرفية اللغة كمن جانب ، وتبيان دور المجتمع في صياغة نظامه اللغوي العام وأثر هذه الصياغة المصطلح عليها في تنفيذ مبادئ هذا النظام من قبل الفرد بين جماعته التي ينتسب إليها .

فالمجتمع هو الذي يؤسس لأعضائه ما يُسمى باللغة المشتركة التي ((تلم شتاتهم وتجمع ما قد تبدد من وحدتهم وانسجامهم ، وإذا لم تكن لقوم من الأقوام تلك اللغة المشتركة فلا قدرة لرأيهم إلا في حدود الأسرة أو

([48]) الخصائص : ٣ / ٢٤٦ .

([49]) أسس علم اللغة ، ص ٣٧ .

([50]) الخصائص : ١ / ١٦ .

ISSN: 1812-7576

القرية))[51] وفي هذا يتضح أن المجتمع أو القوم شرط أساسي لوجود اللغة فلا مجتمع مهما كان حظه من الحضارة دون لغة وليس ((هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل معه)) [52] .

وبعد هذا العرض الذي أبرزنا فيه أبعاد مفهوم ابن جني للغة لنا أن نتساءل :

ما الذي تقف عليه بعد ذلك ..؟

لعل أول ما يلفت الانتباه في ذلك هو : أن ابن جني قصر اللغة على طبيعتها الصوتية ، وهو بذلك يبعد الطبيعة الصورية لها عن الدرس اللغوي ، وهو محق في ذلك ، فعالم اللغة إنما يهمه ملاحظة الأصوات ، واللسانيات كما هو معروف تبعد الكتابة مكتفية بالصوت المنطوق ، ولعل ذلك ((يفسر لنا المنهج الغربي في جمع اللغة واستقرائها من طريق الرواية والمشافهة وفي حديثهم عن السماع ومنهج علم القراءات في التلقي والعرض)) [53] وقديما كان سيبويه ينبين جيد الأصوات وردبتها عن طريق المشافهة والسماع [54] .على أن الأصوات في الواقع تشير إلى الاستعمال العرفي ما دامت ذات صلة بالتعبير ، فالقول أن اللغة أصوات إنما ينصرف إلى عملية الكلام المسموع ي إلى اللغة في مفهومها العام ، وابن جني قد قرر ذلك في أكثر من موضع ، فهو يرى أن تصريف كلمة (اللغة) من لغوت أي تكلمت [55] ، وفسر كلمة (لغا) في الحديث الذي أورده بـ (تكلم) [56] أي نطق بما لا ينبغي ، والكلام عنده لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة ، وهو يرى مذهب الأخفش الأوسط في أن المتكلم لا يكون متكلما حتى يحرك بالكلام آلات نطقه [57] وكل ذلك يتفق مع ما سلف ذكره من قول الجاحظ في أن تحقق عملية الكلام مرتبط بظهور الصوت وقد تقررت ماهية الكلام ، فيما بعد ، على يد ابن سنان الخفاجي حين عده أصواتا مقطعة على وجه مخصوص وأن إفادته تكمن في المواضعة [58] .

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك، أن عبارة (اللغة أصوات) عند ابن جني لا تقف عند المستوى القياسي أو الأدبي للغة ، بل أنها تصدق على جميع مستوياتها وفي شتى المواقف .

([51]) اللغة القومية والعالمية ، ص ١٠٣ .

([52]) علم اللغة العربية ، ص ١٢ .

([53]) فقه اللغة في الكتب العربية ، ص ٦٣ .

([54]) انظر الكتاب : ٤ / ٤٣٢ .

([55]) الخصائص : ١ / ٣٣ .

([56]) ن . م : ١ / ١٨ .

([57]) المصدر نفسه : ١ / ٤٥٥ .

([58]) سر الفصاحة ، ص ٢٤ .

ISSN: 1812-7576

والأمر الاخر الذي نستشفه في مفهوم اللغة عند ابن جني ، هو اجتماعية اللغة ، هذه السمة الاجتماعية هي المصدر الوحيد الذي ينبع منه انتظام اللغوي وفي ضوء هذا المصدر تتحدد أنظمة اللغة الفرعية ، بل أن هذا المصدر هو الذي يمنح اللغة سر حيويتها وديمومتها ، وبعكس السادات التلقية لأفراد اللغة الواحدة ، فالعرب يجمعون بين ساكنين في نطقهم ، والعجم يجمعون بين ثلاثة سواكن وذلك قولهم : أولا الدقيق وماشتة اللبن ([59]) . مما يعني ذلك أن المجتمع هو الذي يقرر أوضاع لغته عن طريق الاستعمال التراضعي ، وبهذا وحده تصبح اللغة ((عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام)) ([60]) لا مجرد أصوات فحسب . وهنا تستحق اللغة السمة التي أطلقها ابن جني بـ (لغة الكافة) التي تشير إلى أوضاع اللغة المتواضع عليها في الكلام لتضمن الفهم المشترك بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة على مرور الأيام والدهور .

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. في فقه اللغة في الكتب العربية د. عبده الراجحي ودراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح وانظر الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني للدكتور حسام النعيمي وغيرها ..

٣. فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٩٠ .

٤. الخصائص : تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٢ / ١ / ٣٢ . والاحناء : أطراف الشيء ونواحيه .

٥. الكتاب : (ط ، هارون) الخانجي ١٩٨٢

٦. بحوث ومقالات في اللغة : د . رمضان عبد التواب ، الخانجي ١٩٨٨ .

٧. خواطر هيكلية في كتاب سيبويه ، عمر تمغلد ، الحولية التونسية ١٨ / ١٩٨٠

٨. الإيضاح في علل النحو : الزجاجي ، تحقيق د. مازن المبارك ، بيروت ط٢ - ١٩٧٣.

٩. البيان والتبيين : الجاحظ ، (تحـ هارون) الخانجي ١٩٧٥ / ١ / ١١ .

([59]) الخصائص : ١ / ٨٩ .

([60]) سر الفصاحة ، ص ٣٩ .

ISSN: 1812-7576